الفصل الثاني عشر

الحِمَى في صَدر الإسلام

الحمى قبل الإسلام

ذكر اللغويون تعريفات متعددة للحمى، لعل أدقها تعريف الليث بأنه «موضع فيه كَلأ، يُحْمَى من الناس أن يرعى» (لسان العرب ١٨ / ٢١٧) وقد نقل السمهودي هذا التعريف، وأضاف إليه تعريفاً فقهياً وهو: «موضع من الموات يمنع التعرُّض له ليتوفر فيه الكلأ، فترعاه مواشي مخصوصة (وفاء الوفاء ٢ / ٢٢١). ومن هذه التعريفات يتبين أن للحمى ملكية عامة تتصل بالدولة فتستغلها للصالح العام، أو للشيخ ولرئيس القبيلة لستغلها لنفسه، علماً أن ما يملكه الشيخ أو الرئيس تؤول بعض فوائده للعشيره أيضاً.

يذكر الشافعي: «كان الرجل العزيز من العرب إذا انتجع بلداً مخصباً أوْفَى بكلب على جبل إن كان به، أو نشز إن لم يكن به جبل، ثم استعواه ووقف له من يسمع منتهى صوته بالعواء فحيث بلغ صوته حماه من كل ناحية فيرعى مع العامة فيما سواه ويمنع هذا من غيره لضعفاء سائمته وما أراد قرنه معها فيرعى معها «الأم ٣ / ٢٧٠ وفاء ٢ / ٢٢٤، لسان العرب ١٨ / ٢١٧). ومن هذا يتبين أنه ليست للحمى القدسية التي للحرم، وأنه لا يشترط فيه أن يكون مكاناً مقدساً، وأنه تنفيذ محاولة لقلب المشاع إلى ملكية خاصة عن طريق القوة والسيطرة.

ينقل ياقوت: «قال الأصمعي: الحمى حميان: حمى ضَرية وحمى الربذة» قال المؤلف: ووجدت أنا حمى فَيد وحمى النَير وحمى ذي الشرى وحمى النقيع.. وحمى فيد، قال ثعلب: الحمى حمى فيد إذا كان في أشعار

أسد وطيء، فأما في أشعار كلب فهو حمى بلادهم قريب المدينة بينها وبين غرب (ياقوت ٢/٣٤٢) ويضيف السمهودي بعد إيراده هذا النص «قلت وهي، عن النقيع، بنجد. وهي متقاربة بل سيأتي ما يؤخذ منه دخول النير في حمى ضرية» (وفاء ٢ / ٩١) ويشير ياقوت إلى حمى جلسد (ياقوت ٣ / ١٢٣) وحمى ذي شرى (ياقوت ٤ / ٢٤٦).

وقد ذكرت من أحماء الجاهلية عرنة، فيروي ياقوت «بئر ألية في حزم بني عوال على نيف وأربعين ميلاً من المدينة. وقيل إليه واد بفسح الحيا، والفسح واد بجانبه عرنة، وعرنة روضة بواد ما كان يحمى الخيول في الجاهلية والإسلام بأسفلها قلهى (ياقوت ١ / ٣٥٥ ـ وفاء ٢ / ٢٥١).

ويروي ابن المجاور: «قيل أن جميع أرض زبيد كانت حمى مهلهل وكليب وذلك من حد الحجف إلى أنف قونص وفيه قصره وبركته واصطبله الذي كان يربط فيه خيله.

وأما حمى كليب ومهلهل فكان من الحجف إلى أنف قونص إلى رأس رمع وجميع جواز زبيد وأوديتها إلى حد النوبتين وقوارير طولاً في عرض مثله (المستبصر ص ٦٣ ـ ٦٤).

وهذه رواية مشكوك في دقتها. (انظر صفة جزيرة العرب ١٧٢).

احماء الرسول

وقد ذكر ياقوت: «ألجام موضع من أحماء المدينة جمع حمى (ياقوت ج ١ / ٣٥٠) دون أن يشير إلى موقعة أو يقدم تفاصيل عنه.

تروي بعض الكتب أن الرسول ﷺ قال «لا حمى إلا الله ورسوله» (أم ٣ / ٢٧٠ وفاء ٢ / ٢٢٤ ابن حنبل ٤ / ٧١، ٧٣ البخاري: المساقاة باب ١١).

غير أن هناك روايات تذكر أن الرسول ﷺ أقر لبعض الأشخاص حمى،

كما أنه حمى حمى، وقد استمرت هذه الأحماء بعد الرسول ﷺ، مما يدل على أن نسبة الحديث المذكور أعلاه ليست بمنجاة من الشك وأنها تعبر عن موقف الناس من الأحماء بعد الاسلام.

النقيع

فيروي الأصفهاني «كان عمرو بن سلمة بن سكن بن قريط بن عبد بن أبي بكر أسلمَ فحسن إسلامه ووفد إلى النبي فاستقطعه حمى بين الشعارى والسعدية، والسعدية ماء لعمرو بن سلمة، والشعارى ماء لبني قتادة بن سكن بن قريظ وهي رحبة طولها تسعة أميال في ستة أميال فأقطعه إياها فأحماها ابنه جَحوش فاسترعاه نفر من بني جعفر بن كلاب فأرعاهم، فحملوا نعمهم على خيلهم بغير إذنه فأخبر بذلك فغضب وأراد إخراجهم» أغاني ٢٠ / ١٦٥، انظر وفاء ٢ / ٣٣٠ وياقوت: ٣ / ٣٠٦ حيث يسميانها الشقراء بدل الشعارى.

ويروي ابن إسحاق عن عبدالله بن أبي بكر «فخرج وفد جرش حتى قدموا على رسول الله فأسلموا وحمى لهم حمى حول قريتهم على أعلام معلومة للفرس وللراحلة وللمثيرة تثير الحرث فمن رعاها من الناس سوى ذلك فماله سحت» (طبري ١ / ١٧٣١) وقد روي نصه بشكل آخر «أن لهم حماهم الذي أسلموا عليه فمن رعاه بغير بساط أهله فماله سحت» (الوثائق السياسية ٢١٣).

ويروي أبو داود من طريق عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده «جاء هلال أحد بني متعان إلى رسول الله ﷺ بعشور نخل فسأله أن يحمي وادياً يقال له سكبة فحمى له رسول الله ﷺ ذلك الوادي، فلما ولي عمر بن الخطاب زحمه الله كتب سفيان بن وهب إلى عمر يسأله ذلك فكتب إليه عمر: إن أدي إليك ما كان يؤدي إلى رسول الله ﷺ من عشور نخله فاحْمِ واديه سكبة فإنما هو ذباب غيث يأكله من شاء» (السنن ١/٤٥٣ ط القاهرة ١٣٤٨، بكري ٧٤٦، الوثائق السياسية ٢٤٩).

ويروي ابن سعد أنه أعطى بني قرة حمى بكتاب هذا نصه «بسم الله

الـرحمن الرحيم: هذا ما أعطى محمد رسول الله بني قرة بن عبدالله بن أبي نجيح النهديين أنه أعطاهم المظلة كلها، أرضها وماءها وسهلها وجبلها حتى يرعـون فيه مواشيهم وكتب معـاوية بن أبي سفيان (سعـد ٢٢/٢/١ الـوثائق السياسية رقم ٨٩).

حمى النقيع

تروي عدة مصادر أن الرسول حمى النقيع (انظر البخاري ٣ / ١٣ ابن حنبل ٢ / ١٥٥ / ١٥٧ ابن سلام: الأموال الفقرة ٧٣٩ وفاء ٢ / ٢٢١ ـ ٣ عن ابـن شبـه البكـري: معجـم مـا استعجـم ١٣٢١. وقـد ذكـر السمهودي تفاصيل عن هذا الحمى حيث قال: «وروى الزبير بن بكار عن مراوح المزني قال نزل رسول الله ﷺ بالنقيع على مقمل وصليب وقال في حمى النقيع: **«نعم مرتع لأفراس يحمى لهن ويجاهد بهن في سبيل الله»** وحماه واستعملني عليه. وعن غير واحد من الثقات عن النبي ﷺ أنه صلى على مقمل وحماه ما حوله من قاع النقيع لخيول المسلمين ثم زادت بنو أمية بعد والأمراء أضعاف ما حمى رسول الله بالنقيع.

وعن محمد بن هيصم المزني عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ أشرف على مقمل طرف وسط النقيع فمسجده هناك. قال ابن هيصم عن أبيه فدعا رسول الله ﷺ أبي وقال مستعملك في هذا الوادي فما جاء من ها هنا وها هنا يشير نحو مطلع الشمس ومغربها فامنعه فقال إني رجل ليس لي إلا بنات وليس معي أحد يعاونني قال فقال رسول الله ﷺ **«إن الله سيرزقك ولداً ويجعل لك ولياً»** وكان له بعد ذلك ولد، فلم تزل الولاة يولون عليه والياً منذ عهد رسول الله ﷺ يستعمله والي المدينة حتى كان داوود بن عيسى فنزله سنة ١٩٨، وإنما تركه داوود لأن الناس جلوا عنه للخوف ذلك الزمان فلم يبق فيه أحد يستعمله عليه (وفاء ٢/٢٢٣).

يروي ابن عمر أن النبي ﷺ حمى النقيع للخيل، ويروي ابن شَبّة عن

ابن عمر أن النبي ﷺ حمى النقيع للخيل وحمى الربذة للصدقة (وفاء ٢ / ٢٢٢) غير أن حمى الرسول للربذة لا تؤيده المصادر الأخرى.

وما دام للحمى حكم خاص يتميز به عما حوله من الأراضي فلا بد أن تكون له حدود معينة.

وقد حدد الرسول ﷺ لحمى النقيع حدوداً، إلا أنها لم تظل ثابتة إذ يروي الزبير بن بكار «قال يعقوب المزني ثم تزايد الناس بعد في الحمى فحموا ما بين تراخم إلى يلبن واتخذوا المرابد يحبسون فيها ما رعى الحمى من الإبل حتى رأيت بعضها يأكل دبر بعض، قال الزبير وقال لي: لقد رأيت لأبيك أكثر من ثلاثة آلاف شاة بالنقيع وهو إذ ذاك أمير المدينة ما يرعى رعاؤه منها شيئاً في الحمى حتى يكتمل العشب ويبلغ غايته فيرسل عامل الحمى صائحاً يصيح في الناس يؤذنهم باليوم الذي يأذن لهم يرعون الحمى فيسرع فيه رعاء أبيك والناس يداً واحدة «بكفرسي رهان» (وفاء ٢ / ٢٢٣ ـ ٤).

يقول البكري أن «النقيع موضع تلقاء المدينة، بينها وبين مكة، على ثلاث مراحل من مكة بقرب قدس» (بكري ١٣٢٣ والصحيح على ثلاث مراحل من المدينة).

ويروي أيضاً «وروي أيضاً أن النبي ﷺ صلى الصبح في المسجد بأعلى عسيب وهو جبل بأعلى قاع النقيع، ثم أمر رجلاً صيتاً فصاح بأعلى صوته، فكان مدى صوته بريداً وهو أربعة فراسخ فجعل ذلك حمى، طوله بريد وعرضه الميل، وفي بعضه أقل، في قاع مدر طيب، ينبت أحرار البقل والطرائف، ويستأجم حتى يغيب فيه الراكب، وفيه مع ذلك من العضاه والعرفط والسدر والسيّال والسلم والطلح والسمر والعوسج والعرفج شجراء كثيرة وتحف هذا القاع الحرة، حرة بني سليم في شرقيه، وفيها قيعان دوافع في بطن النقيع وفي غربيه الصحرة، وأعلام مشهورة منها برام والوتد وضاف، وقد ذكر أن أول أعلامه عسيب فبرام، جبل كأنه فسطاط، والوتد في أسفل النقيع كأنه قرن منتصب ومقمل جبل أحمر

افطح بين برام والوتد شارع في غربي النقيع، وروي أن رسول الله ﷺ أشرف على مقمل وصلى عليه فسجده هناك. وبقاع النقيع غدر تصيف فأعلاها براجم وأذكرها يلبن، وغدير سلامة أسفل من يلبن وبشرقي النقيع في الحرة قلتان يبقى ماؤهما ويصيف وهما أثَيث وأثيث (بكري ١٣٢٣ ـ ٥، عن السكوني، وفاء ٢/٢٢٢ عن الهجري).

ويضيف البكري. «وليس بإزاء النقيع مما يلي الصحرة إلا ماءة واحدة، وهي حفيرة لجعفر بن طلحة بن عمرو بن عبيدالله بن معمر، يقال لها حفيرة السدرة، وسيل النقيع يفضي إلى قرار أملس، وهي أرض بيضاء جَهَاد، لا تنبت شيئاً لها حس تحت الحافر، هذا لفظ السكوني، والعرب تسمي هذه الأرض النفخاء والجمع النفاخي، ويليها أسفل منها حصير، قاع يفيض عليه سيل النقيع فيه آبار، ومزارع ومرعى للجمال من عضاه ورمث وأشجار. ويدفع أيضاً على حصير الأتمة آتمة أبي الزبير وهي بساط طويلة واسعة تنبت عصماً للمال وهناك بئر تنسب إلى ابن الزبير، وكان الأشعث المزني ينزل الأتمة ويلزمها فاستمشى ماشية كثيرة وأفاد مالاً جزلاً حتى اتخذ أصولاً واستغنى، ثم يفضي من حصير إلى غدير يقال له المَزْج لا يفارقه الماء، وهو في شق بين جبلين يمر به وادي العقيق فيحفره لضيق مسلكه وهذا الجبل المنفلق الذي يمر به السيل يقال له سقف، ثم يفضي السيل منه إلى غدير يقال له رواوة. ولا يرى قعر هذا الغدير أبداً ولا يفارقه الماء ثم يفضي إلى غدير الطفيتين، وهو من أعذب ماء يشرب. إلا أنه يبيل الدم ثم يفضي إلى الأثبة، وفيه غدير يقال له الأثبة سميت به الأرض، وفيه مال لعباد بن حمزة بن عبدالله بن الزبير، كثير النخل وهو وقف، ثم أسفل من ذلك رابغ وهو فلق من جبل سقف متضايق يجتمع فيه السيل، سيل العقيق، ثم يلتقي وادي العقيق ووادي ريم (١٣٢٧ ـ ٨).

أحماء أبي بكر:

يروي ابن سعد عن هني مولى عمر «أن أبا بكر الصديق لم يحم شيئاً من

الأرض إلا النقيع، وقال رأيت رسول الله ﷺ حماه فكان يحميه للخيل التي يغزي عليها، وكانت إبل الصدقة إذا أخذت عجافاً أرسل بها إلى الربذة وما والاها ترعى هناك ولا يحمي لها شيئاً ويأمر أهل المياه لا يمنعون من ورد عليهم يشرب معهم ويرعى عليهم (ابن سعد ٥/٦).

غير أن سيف بن عمر يروي عن سهل بن يوسف عن القاسم بن محمد: «فلما غلب أهل الردة ودخلوا في الباب الذي خرجوا منه وسامح الناس. جاءت بنو ثعلبة وهي كانت منازلهم لينزلوها فمنعوا منها فأتوه في المدينة فقالوا علام نُمْنعُ من نزول بلادنا؟ فقال: كذبتم ليست لكم ببلاد ولكنها موهبي ونقدي، ولم يعتبهم وحمى الأبرق لخيول المسلمين وأرعى سائر بلاد الربذة الناس عدي بني ثعلبة ثم حماها كلها لصدقات المسلمين لقتال كان وقع بين الناس وأصحاب الصدقات فمنع بذلك بعضهم من بعض (طبري ١ / ١٨٧٩) ويقول ياقوت أن أبرق الربذة «من منازل بني ذبيان فغلبهم عليه أبو بكر لما ارتدوا وجعله حمى لخيول المسلمين» (ياقوت ١ / ٧٧).

يتبين من هذه النصوص أن أبا بكر أبقى حمى النقيع على ما أقره عليه الرسول ﷺ وحمى أبرق الربذة دون أن يحميها.

أحماء عمر: الربذة

يروي ابن شبة والطبراني عن ابن عمران «حمى النبي ﷺ الربذة لإبل الصدقة» (وفاء ٢/٢٢٢، ٢٢٧) غير أن المصادر الأخرى لا تؤيد ذلك، والراجح أن الخليفة الثاني عمر بن الخطاب هو أول من حمى الربذة.

فيروي ابن سعد عن «محمد بن عمر عن عكرمة بن عبدالله بن فروخ عن وجرة عن أبيه كان عمر بن الخطاب يحمي النقيع لخيل المسلمين ويحمي الربذة والشرف لإبل الصدقة» (سعد ٣ / ١ / ٢٢٠).

ويروي عن هنيٍّ مولى عمر «فلما كان عمر بن الخطاب وكثر الناس وبعث

البعوث إلى الشام وإلى مصر وإلى العراق حمى الربذة واستعملني على حمى الربذة» (ابن سعد ٥/٦).

ويذكر زيد بن أسلم عن أبيه «أن عمر بن الخطاب استعمل مولى له يقال له هُنَي على الحمى» (الأم ٣/٢٦٩) أبو يوسف ص ١٠٥ أبو عبيد ٧٤٠ وفاء ٢/٢٢٥.

ويقول البكري «الربذة هي التي جعلها عمر رضي الله عنه حمى «لإبل الصدقة وكان الذي أحماه بريداً في بريد، ثم تزيدت الولاة في الحمى أضعافاً ثم أبيحت الأحماء في أيام المهدي فلم يحمها أحد بعد ذلك (البكري ٦٣٣).

يقول الأصمعي أن «في أول الشرف الربذة وهي الحمى الأيمن، والشريف إلى جنبه يفصل بينهما التسرير فما كان مشرقاً فهو الشريف وما كان مغرباً فهو الشرف» (وفاء ٢/٢٢٧) ويقول السمهودي عند كلامه عن حمى الربذة أن الربذة «قرية بنجد من عمل المدينة على ثلاثة أيام منها قاله المجد. وفي كلام الأسدي ما يقضي أنها على أربعة أيام... وتقدم قول الأصمعي أنها من الشرف وأنها الحمى الأيمن، وقال نصر هي من منازل الحاج بين السليلة والعقيق أي التي بذات عرق (وفاء ٢ / ٢٢٧).

ويقول أيضاً «وروى ابن شبّة بإسناد صحيح عن ابن عمر رضي الله عنه أن عمر حمى الربذة لنعم الصدقة ولهذا نقل الهجري عن جماعة أن أول من أحمى الحمى بالربذة عمر بن الخطاب لقصاص الصدقة وأن سعة حماه الذي أحمى بريد في بريد وأن سرة حمى الزبذة كانت الحرة، ثم زاد الولاة بعد في الحمى، وآخر من أحماه أبو بكر الزبيري لنعمه وكان يرعى فيه أهل المدينة، وكان جعفر بن سليمان في عمله الأخير على المدينة أحماه لظهره بعدما أبيحت الأحماء في ولاية المهدي ثم لم يحمه أحد منذ عزل بكار الزبيري (وفاء ٢ / ٢٢٧).

ويروى عن الأسدي «الربذة لقوم من ولد الزبير وكانت لسعد بن بكر من

فزارة» (وفاء ٢ / ٢٢٧) غير أنه لا يذكر متى أخذها آل الزبير وكيف أخذوها.

«وفي تاريخ عبيدالله الأهوازي أنها خربت في سنة **٣١٩** لاتصال الحروب بين أهلها وأهل ضرية ثم استأمن أهل ضرية إلى القرامطة فاستنجدوهم عليهم فارتحل أهل الربذة عنها فخربت وكان أحسن منزل بطريق مكة» (وفاء ٢ / ٢٢٧ ياقوت ٢ / ٧٤٩).

ويروي الأصمعي عن جعفر بن سليمان «إذا عقد البعير شحماً بالربذة وسفر عليه سفرتان لا تنقصان شحمه لأنها أرض ليس فيها حمض» (البكري ٨٦٠).

وقد وصف أعلام حمى الربذة السمهودي (وفاء ٢ / ٢٢٧ ولعله أخذها من المهجري، والبكري (٦٣٣ ـ ٧) كما ذكر ياقوت الربذة وأماكنها في مواضع مختلفة من كتابه.

الشرف

لقد ذكرنا من قبل رواية الواقدي عن عكرمة عن أبي وجرة عن أبيه أن عمر حمى أيضاً الشرف (ابن سعد ٣ ـ ١ / ٢٢٠). ويقول السمهودي الشرف حماه عمر رضي الله عنه، وليس هو شرف الروحاء بل موضع بكبد نجد، قال نصر: الشرف كبد نجد وقيل واد عظيم تكتنفه جبال حمى ضرية والظاهر أنه مراد من غاير بينه وبين حمى ضرية والربذة. قال الأصمعي: الشرف كبد نجد وكانت منازل بني آكل المرار، وفيها اليوم حمى ضرية، وفي أول الشرف الربذة وهي الحمى الأيمن والشريف إلى جنبه يفصل بينهما التسرير، فما كان مشرقاً فهو الشريف وما كان مغرباً فهو الشرف «ويحتمل أن المراد بقولهم حمى الشرف والربذة حمى ضرية والربذة لما سيأتي من حمى ضرية أنه كان يقال لعامله عامل الشرف، ولم يفرد الهجري في أحماء نجد الشرف ولم يبين له محلاً وإنما ذكر الربذة وضرية مع ما سيأتي فيهما وقال الأصمعي: كان يقال من تصيف الشرف وتربع الحزن وشتى الصمان فقد أصاب المرعى ٢٢ (وفاء ـ ٢/٢٢٧ ياقوت ٣/٥/٢).

يتبين من هذه النصوص أن حمى الشرف هو حمى ضرية نفسه، ويبدو أنه كان يطلق عليه في أوائل العهود الشرف، ثم صار يطلق عليه حمى ضرية.

يقول السمهودي: «ونقل المجد أن أشهر الأحماء وأسيرها ذكراً حمى ضرية وكان حمى كليب بن وائل فيما يزعم بعض أهل طيء قال وذلك مشهور عندنا بالبادية يرويه كابر عن كابر وفي ناحية منه قبر كليب معروف إلى الآن. قلت وأخبرني بذلك رئيس أهل نجد. . أجود بن جبر وقال: إن قبر كليب هناك معروف عند العرب يقصدونه، قال ودلني عليه بعضهم لأقصده فقلت: هو واحد من الجاهلية.

حمى ضرية

ونقل الهجري أن أول من أحمى الحمى بضرية عمر بن الخطاب أحماه لإبل الصدقة وظهران الغزاة وأن سروح الغنم العادية من ضرية ترعى على وجوهها ثم تؤوب بضرية وذلك ستة أميال من كل ناحية، وضرية في وسط الحمى، فكان على ذلك حياة عمر وصدراً من ولاية عثمان ثم كثر النعم حتى بلغ أربعين ألف بعير فضاق عنه الحمى، فأمر عثمان أن يزاد ما يسع إبل الصدقة وظهران الغزاة زيادة لم يحددوها إلا أن عثمان رضي الله عنه اشترى ماء من مياه بني ضبينة كان أدنى مياه غنى إلى ضرية يقال له البكرة عند هضبات يقال لها البكراث على نحو عشرة أميال من ضرية، يذكرون أن البكرة دخلت في حمى عثمان ثم لم تزل الولاة تزيد فيه واتخذوه مأكَلَه، ومن أشهرهم فيه انبساطاً إبراهيم بن هشام المخزومي زاد فيه وضيق على أهله واتخذ فيه من كل لون من ألوان الإبل ألف بعير (وفاء ٢ / ٢٢٩).

«وكانت ضرية من مياه الضباب في الجاهلية لذى الجوشن الضبابي والدشمر قاتل الحسين بن علي» (وفاء ٢ / ٢٣٢).

وقد ظلت هذه الأهمية الخاصة لضرية بعد الإسلام فيقول السمهودي وكان شأن الحمى عند ولاة المدينة عظيماً، كانوا يستعملون عاملاً وحده وكانت إصابة فيه عظيمة، وكان لحواطة سلطان عظيم، وحواط كل ناحية سادة القوم

وأشرافهم، وكان يقال لعامل الحمى عامل الشرف (وفاء ٢ / ٣٢٣) يظهر أن حمى ضرية قديم يرجع إلى زمن الجاهلية، فقد كان في الشرف وهو منازل بني آكل المرار من كندة (ياقوت ٣ / ٢٨٥ وفاء ٢ / ٢٢٧ عن الأصمعي) والراجح أنه كان مقر حكمهم الذي سيطروا منه على قبائل نجد وبلادها، وكان فيه أيضاً قبر كليب (وفاء ٢ / ٢٢ عن المجد) ولعل كليباً اتخذه مقراً له محاولاً بذلك أن يرث آل كندة تقاليدهم وظل يحكم بقوة حتى قتل، فأدى مقتله إلى سلسلة الحروب المدعوة بالبسوس والتي كان من أهم آثارها عدم تكوين دولة كليبية تحل محل كندة، وإلى اضطراب الأمن في الجزيرة، وإقصاء تغلب عن هضبة نجد وابتعادها عن موضع ضرية الذي أخذت تحتله قبائل كلاب وغنيّ.

إن هذه الأهمية الكبيرة لضرية لا ترجع إلى أهمية موقعها الجغرافي بقدر ما ترجع إلى أهمية مواردها، حيث أن في هذه المنطقة أو قربها تقع أكثر مناجم الذهب في الجزيرة ولعل هذا من أهم عوامل نشوء وقوة كل من كندة وحكومة كليب التغلبي أي أن كلاً منهما اختار ضرية لكثرة مناجم الذهب فيها وليكون بمقدوره السيطرة عليها وبعد أن تم له ذلك أخذ يستخدم موارد هذه المناجم لتقوية مركزه وبسط سيطرته.

ثم إن ضرية كانت منطقة تكثر فيه الآبار والينابيع والمياه التي تصلح لاتخاذ الزروع. وقد ذكر السمهودي نقلاً عن الهجري عدداً من الينابيع والمزارع التي حدثت في ضرية في العهد الإسلامي وأخبارها، ولعل هذه المزارع كانت ترجع إلى العصر الجاهلي وأن المسلمين وسعوها، أو أعادوا حفرها أو أن ازدهار الزراعة في ضرية في العصر الجاهلي كان دافعاً للمسلمين للالتفات إليها وإحيائها.

فمما ذكره السمهودي أن «عثمان رضي الله عنه اشترى ماء من مياه بني ضبينة كان أدنى مياه غَنيّ إلى ضرية يقال له البكرة عند هضبات يقال لها البكرات على نحو عشرة أميال من ضرية يذكرون أن البكرة دخلت في حمى عثمان.. وكان ناس من الضباب قدموا على ولد عثمان فاستسقوهم بالبكرة

فأسقوهم فلم تزل بأيديهم.

وحفر عثمان عيناً في ناحية أرض غني خارجة عن الحمى بناحية الماء الذي يقال له نفي على نحو خمسة عشر ميلاً من أضاخ، وفقرت لها بها فقر كبيرة، وابتنى عماله عندها قصراً أثره بيِّن، قرب واردات، مقبل ولم تجر فتركها العمال فلم يحرك ذلك السيح إلى اليوم، ودفنت غني في فتنة ابن الزبير عنصر العين وتلك الفقر فنسيت عيونه.

وأدنى مياه بني تميم إلى أضاخ ماء يقال له أضيخ لبني الهجيم وقد دفن منذ دهر، فقال ناس من بني عبدالله بن عامر لأصهار لهم من بني الهجيم: نحن نستسقي لكم آل عثمان فنسقى، فرغبوا في ذلك فأجابهم آل عثمان فاستظعن الهجيميون قومهم إليه فلقيهم رعاء غنيٍّ، فسألوهم فقالوا: إن بني عثمان ولونا أمره. وقد أدّت هذه الخصومة إلى إهمال هذا الماء فصار مواتاً في سنة مائة وخمس وخمسين.

واحتفر عبدالله بن مطيع حفيرة هي في أيدي الضباب على بريد من ضرية على طريق أضاخ للمدينة في ناحية شُعبَى.

وكان الكنديون يسقون وماؤهم يسمى الثريا.

وقُنيع ماء للعباس الكندي على ظهر محجة أهل البصرة في دارة من دارات الحمى يقال لها دارة عسعس، فلما أجلى الكنديون عن قنيع تنازعت بنو أبي بكر بن كلاب وبنو جعفر فقالت أبو بكر: نحن أحق بماء حلفائنا وقال الجعفريون: هو عند بيوتنا فنحن أحق به... «ثم أخذه الجعفريون».

واحتفر بعض بني حسن بن علي بالحمى واتخذ إلى جنب حفرته عيناً ساحت ثم خرجت في غربي طحفة بشاطىء الريان على ثلاثة عشر ميلاً من ضرية وهي بيد ناس من بني جعفر ثم من بني ملاعب الأسنة من جهة بني أختهم الحسنيين.

وكان لبني الأدرم وهم من بني تيْم بن لؤي، ماء قديم على طريق أهل ضرية إلى المدينة على ١٨ ميلاً من ضرية يسمى الجفره ومعهم نفر من بني عامر بن لؤي، فاحتفر سعيد بن سليمان المساحقي العامري (القاري؟) عيناً وأساحها وغرس عليها نخلاً كثيراً على ميل أو نحوه من حفر بني الأدرم بدارة الأسود جبل عظيم أسود، وهي عامرة كثيرة النخل.

ولما ولى إبراهيم بن هشام المدينة احتقر بالحمى حفيرة بالهضب اليمنى على ستة أميال من ضرية على طريق البكرة إلى ضرية سماها النامية وآخرى بناحية شُعبَى بين ضرية، وحفر بنو الأردم على سبعة أميال من ضرية بواد يقال له فاضحة لأنه انفضاح أي انفراج واتساع من جبال.

ولما هلك ابن هشام احتفر جعفر بن مصعب بن الزبير حفيرة إلى جنب حفيرة ابن هشام بفاضحة ونزلها بولده حتى مات، فأقام ابنه محمد بمنزلة أبيه حتى خرج محمد بن إبراهيم بن عبدالله بن حسن فخرج مع محمد فلما قتل هرب إلى البصرة، ثم رجع إلى فاضحة وتزوج من بني جعفر، ثم من بني الطفيل فأولد عبدالله فزوجه ابنة القاسم بن جندب الفزاري، وكان علماً من أعلام العرب ينزل باللواء، وكان القاسم لا يسير أبداً ولم يكن حج قط ولا يكاد يقدم ضرية، وأولاده عبد الله من ابنته في بقية من أموالهم بفاضحة.

واحتفر عبدالله حفيرة إلى جنب حفيرة جده ودفن حفيرة ابن هشام وأخفى مكانها، واحتفر جوشن مولى ابن هشام حفيرة على ميلين أو ثلاثة من حفر بني الأدرم وحفرة المساحقي سماها الجوشنية، ثم اشتراها ناس من ولد رافع بن خديج من الأنصار وأحدثوا بقربها حفيرة بقطيعة السلطان فنازعهم محمد بن جعفر بن مصعب بحق بني الأدرم وكان من أشد الرجال فقاتلهم وحده.. واستعدى عليهما الحسن بن زيد بالمدينة.. واختصموا في الجوشنية والحفيرة، حتى قضى لبني الأدرم والمساحقي فكلمهم الناس فسبقوهم بها، وكان الأنصاريون أهل عمود وماشيه، فلما كانت الفتنة أكلتهم اللصوص من قيس من

كلاب وفـزارة فلحقـوا بطيء وناسبوهم فأمنوا مدة، ثم أغارت عليهم لصوص فتفرقوا وتركوا البادية، وكانت بنو الأدرم وبنو بحير القريشيون قد كثروا بالجفر، ثم وقع بينهم شر وكان جيرانهم من قيس يكرمونهم، فلما تفاسدوا جعل بعضهم يهيج اللصوص على بعض فنهبهم بنو كلاب وفزارة وقتلوا بعض رجالهم فلحقوا بالمدينة وتفرقوا (وفاء ٢ / ٢٢٩ ـ ٢٣٢).

«وأما عين ضرية وسيحها فيقال أنه كان لعثمان بن عنبسة بن أبي سفيان وهو الذي حفرها واغترس النخل وضفر بها ضفيرة بالصخر لينحبس الماء وهو سد يعترض الوادي فيقطع ماءه وينحبس زماناً ليكون أغزر للعين، فلما قام أبو العباس كان ذلك فيما قبضوا، ففي آخر ولاية أبي العباس وكانت تحته أم سلمة المخزومية من بني جعفر بن كلاب وفد أخ لها معروف بن عبدالله عليه فأكرمه فسـألـه أن يقطعه عين ضرية فأقطعه وكان بدوياً ذا زرع، فلما أرطب نخلها نزلها بأهله وكانت نعمه ترد عليه وسأله ناس من ضرية أن يعريهم من نخلهِ فأعراهم وصار يجني للضيفان من الرطب ويحلب لهم من إبله فمكث نحو شهرين فأتاه ضيفان بعد ما ولى الرطب فأرسل فلم يؤت إلا بقليل وقال له الرسول: ذهب الرطب إلا ما ترى فقال: يسوؤني أن أعود على ضيفاني من نخلكم، وكان قيمه على العين زرع قثاء وبطيخاً فأتاه بشيء منه فقال: قبح الله ما جئت به واحذر أن يراه عيالي، وكره النخل وأراد بيعه فاشتراه منه عبدالله الهاشمي عامل اليمامة بألفي دينـار ثم ولاه أبـا جعفـر بن سليمان إذ سأله إياه فأحدث بسوق ضرية حوانيت جعلها سماطين داخلين في سماطي ضرية الأولين فيهما نيف وثمانون حانوتاً فربما جمعت غلة الحوانيت والنخل والزروع ثمانية آلاف درهم في السنة (وفاء ٢ / ٢٣٢ ـ ٣).

«ولمـا ولي أبـو خليد العبسي خال الـوليد عمـل ضرية نزلها وحفر في جوف الشاة في حق غني فقيرة، فلما ولي بنو العباس هدمت غني تلك الحفرة وسووها بالأرض (وفـاء ٢ / ٢٣٣) ولبني عبس ماء في شعب يقـال له الأسـودة ولهم بالحمى ما يقال له ضحح في ابط رميلة الحسى، حسى بني حصبة. ولهم ألحاء

بها نخل كثيرة ولهم مياه أخرى (وفاء ٢ / ٢٣٣).

ولضرية أهمية كبرى كمرعى فيقول الأصمعي «كان يقال من تصيف الشرف وتربع الحزن وشتى الصمان فقد أصاب المرعى» (ياقوت ٣ / ٣٨٥ وفاء ٢ / ٢٢٧).

«وحكى ابن جني في «النوادر الممتعة» عن الفضل بن إسحاق قال هو أو قال بعض المشيخة. لقيت أعرابياً فقلت ممن الرجل؟ فقال من بني أسد فقلت فمن أين أقبلت؟ قال من هذه البادية قلت: فأين مسكنك منها؟ قال مساقط الحمى حمى ضرية بأرضٍ لعمر اللهما نريد بها بدلاً ولا عنها حولاً، قد نصحتها الغدوات وحفتها الفلوات فلا يملولح ترابها ولا يعمر جنابها ليس فيها أذى ولا قذى ولا وعك ولا موم ولا حمى، فنحن فيها بأرفه عيش وأرغد معيشة» (وفاء ٢ / ٢٣٤).

وتؤكد المصادر أن عمر حمى الحمى من أجل إبل الصدقة فتروي عدة مصادر أن عمر كان يحمل على ثلاثين ألف بعير في سبيل الله كل سنة (ابن سعد ٣ ـ ١/ ٢٣٠ عن الواقدي). يذكر مالك أنها أربعين ألفاً (أموال ٧٤٢ وفاء ٢/ ٢٢٥) ويضيف السمهودي عن مالك «بلغنا أن الخيل التي أعدها عمر رضي الله عنه ليحمل عليها في الجهاد ومن لا مركوب له عدتها أربعون ألفاً».

النقيع

وقد حمى النقيع لخيل المسلمين، والربذة والشرف لإبل الصدقة (ابن سعد ٣ ـ ١ / ٢٢١ عن الواقدي).

ويروي زيد بن أسلم عن أبيه «رأيت عمر بن الخطاب رضي الله عنه استعمل مولى له على الحمى فقال له ويحك يا هني اضمم جناحك عن الناس واتق دعوة المظلوم فإن دعوته مجابة، ادخل لي رب الصريمة ورب الغنيمة، ودعني من نعم عثمان بن عفان وابن عوف، فإن ابن عفان وابن عوف إن هلكت ماشيتها رجعا إلى المدينة إلى نخل وزرع، وإن هذا المسكين إن هلكت ماشيته جاءني

يصيح : ياأمير المؤمنين ! ! والماء والكلأ أهون عليَّ من أن أغرم له ذهباً أو ورقاً، والله إن هذه لبلادهم قاتلوا عليها في الجاهلية وأسلموا عليها في الإسلام، ولولا هذا النعم الذي أحمل عليه في سبيل الله ما حميت على الناس من بلادهم شيئاً (أبو يوسف الخراج ١٠٥، وفاء ٢ / ٢٢٥). ويذكر القاسم بن سلام بعد إيراده هذا النص «قال أسلم فسمعت رجلاً، من بني ثعلبة يقول يا أمير المؤمنين حميت بلادنا قاتلنا عليها في الجاهلية، وأسلمنا عليها في الإسلام، يرددها عليه مراراً وعمر رافع رأسه إليه فقال: البلاد بلاد الله، وتحمى لنعم مال الله يحمل عليها في سبيل الله» (الأموال فقرة ٧٤٠/ ٧٤٠).

يتبين من هذا النص:

١ ـ أن الأحماء للمصلحة العامة.

٢ ـ يقررها الخليفة.

٣ ـ يشمل أراضي كان بعض الناس قد وضعوا أيديهم عليها.

٤ ـ أنها لأغراض الرعي.

٥ ـ يباح للناس استعمالها فهي ليست ملكية خاصة.

٦ ـ يجوز منع بعض الناس أو كلهم عنها.

٧ ـ ليست لها صبغة قدسية أو دينية أو لأغراض دينية.

يقول الشافعي: «وقول عمر: لولا المال الذي أحمل عليه في سبيل الله ما حميت على المسلمين من بلادهم شبراً. إني لم أحمها لنفسي أو لخاصتي وإني حميتها لمال الله الذي أحمل عليه في سبيل الله، وكانت من أكثر ما عندي مما يحتاج إلى الحمى فنسب الحمى إليها لكثرتها، وقد أدخل الحمى خيل الغزاة في سبيل الله فلم يكن ليحمل عليه أولى بما عنده من الحمى مما تركه أهله ويحملون عليها في سبيل الله لآن كلاً لتعزيز الإسلام، وأدخل فيها الإبل الضوال لأنها قليل لعوام من أهل البعد». . . إن ما دخل ما فضل من سهمان أهل الصدقة من إبل الصدقة وهم عوام من المسلمين يحتاجون إلى ما جعل لهم مع إدخاله من ضعف عن النجعة ممن قل ماله وفي تماسك أموالهم عليهم غنى

عن أن يدخلوا على أهـل الفيء من المسلمين وكـل هذا وجه عام النفع للمسلمين» (الأم ٣/ ٢٧١).

لقد أثارت مسألة الحمى مشكلات كثيرة وكانت من القضايا التي أخذها بعض المسلمين على الخليفة الثالث عثمان فيرى أبو مخنف بإسناده: «أنكر على عثمان ما أنكر عليه أن حمى الحمى» وهذا كلام غير دقيق، إذ أن عثمان لم يبدأ بإحماء الحمى، بل سبقه في ذلك الرسول ﷺ وأبو بكر وعمر ولا يكون هذا التعبير صحيحاً إلا إذا افترضنا أن أبا مخنف يشير إلى حمى معين.

وقد نقل الواقدي عن معمر عن الزهري، أن عثمان حمى النقيع لخيل المسلمين وكـان يحمل في كل سنة على خمسمائة فرس وألف بعير. وكانت الإبـل ترعى بناحية الربذة في حمى لها (أنساب ٥/ ٣٨) غير أن هذه الرواية تناقض الروايات المتعددة الأخرى التي تقول: إن الرسول ﷺ هو الذي حمى النقيع.

فيد

تشير المصـادر إلى حمى فيد (انظر ياقوت ٢ / ٣٤٣ وفاء ٢ / ٢٢١) ويذكر السمهودي: «وفيد منزل في طريق الحاج العراقي مسيرة يوم (؟) من المدينة..

يقـول الأسـدي: وفيد «لطيء لبني نبهان وبه أخلاط من أسد وهمدان وغيرهم وبه ثلاث عيون، عين النخل احتفرها عثمان بن عفان، والأخرى تعرف بالحارة في وسط الحصن والسوق احتفرها المنصور، والثالثة تعرف بالباردة على الطريق خارج المنزل حفرها المهدي وبفيد آبار كثيرة قصيرة الرشا».

ويقول الهجري: وأما حمى فيد وصفته فلم أجد أحداً عنده علم ممن كان أول من أحماه ولا كم كانت سعته أول ما أحمى، إلا أن فيداً كان موضعه الذي هو به اليوم فلاة من الأرض بين بني أسـد وطيء.. وكـانت إلى جبل طيء أقرب فذكـر أهـل العلم ممن لقيت من أهله أنـه التقطت به ركيتان كانتا جاهليتين التقطهما أناس من بني أبي سلام ومعهم نفر من طيء وهم يرعون هناك في ولاية

بني مروان، وأن أول من حفر به حفراً في الإسلام أبو الديلم مولى فزارة فاحتفر العين التي هي اليوم قائمة وأساحها وغرس عليها، وكانت في يده حتى قام بنو العباس فقبضوها فهي اليوم في أيديهم (وفاء ٢ / ٢٣٥ - ٦).

ويعقب السمهودي على كلام الهجري بقوله «وكأنه لم يقف على ما ذكره الأسدي من عين عثمان رضي الله عنه. ولعله أول من أحماه» (وفاء ٢ / ٢٣٦).

فإذا صح هذا الاستنتاج يكون مبعث الانتقاد على عثمان هو اتخاذه فيداً حمى، وهذا عمل لا يثير كافة المسلمين بل لا بد أنه أثار بعضهم.

وقد نقل السمهودي ملخص البحث المفصل الذي ذكره الهجري عن حمى فيد.

تذكر روايات أخرى أن عثمان زاد في الحمى فيروي أبو مخنف أن الثائرين على عثمان كان مما عابوه عليه فقالوا: زدت في الحمى لإبل الصدقة على ما حمى عمر فقال إنها زادت في ولايتي (أنساب ٥ / ٦٢) فقالوا أرأيت ما حميت من الحمى الله أذن لك؟ أم على الله تفتري؟. فقال: امضه. نزلت في كذا وكذا، قال وأما الحمى فإن عمر حمى الحمى قبلي لإبل الصدقة فلما وليت زادت إبل الصدقة فزدت في الحمى لما زادت إبل الصدقة (طبري ١ / ٢٩٦٣).

ويروي الطبري أيضاً أن عائشة خطبت من مكة بعد مقتل عثمان، وكان مما قالته: «اجتمعوا أن عاب الغوغاء على هذا المقتول بالأمس الأرب واستعمال من حدثت سنه وقد استعمل أسنانهم قبله، ومواضع من مواضع الحمى حماها لهم وهي أمور قد سبق بها لا يصلح غيرها» (طبري ١ / ٣٠٩٧).

وروى الطبري أن عثمان قال «وقالوا حميت حمى، وإني والله ما حميت، حُميَ قبلي، والله ما حموا شيئاً لأحد، ما حموا إلا ما غلب عليه أهل المدينة ثم لم يمنعوا من رعيه واحداً واقتصروا لصدقات المسلمين يحمونها لئلا يكون

بين من يليها وبين أحد تنازع . ثم ما منعوا ولا نحّوا منها أحداً إلا من ساق درهماً ومالي من بعير غير راحلتين، ومالي ثاغية ولا راغية وإني قد وليت وإن أكثر العرب بعيراً وشاء فمالي اليوم شاة ولا بعير غير بعيرين لحجّي» (طبري ١ / ٢٩٥٢).

وقد أشارت المصادر إلى إضافات عثمان للحمى وتوسيعه إياه فيروي الهجري أن حمى ضرية كان ستة أميال من كل ناحية «حياة عمر وصدراً من ولاية عثمان ثم كثر النعم حتى بلغ أربعين ألف بعير فضاق عنه الحمى فأمر عثمان أن يزاد ما يسع إبل الصدقة وظهران الغزاة فزاد زيادة لم يحددوها إلا أن عثمان اشترى ماء من مياه بني ضبينة كان أدنى مياه غنى إلى ضرية يقال له البكرة عند هضبات يقال لها البكرات علي نحو عشرة أميال من ضرية يذكرون أن البكرة دخلت في حمى عثمان (وفاء ٢ / ٢٢٧) غير أن هذا العمل لا يكفي لتوضيح سبب الاحتجاج الشديد على عثمان بسبب الحمى.

الأمويون والحمى:

لم يذكر من العصر الأموي سوى حمى واحد، فيروي ابن شبة عن أبي عبيدة «كان زياد قد أرعى مسكِيْناً الدارمي حمى له بناحية العُذيْب في عام قحط حتى أخصب الناس» (الأغاني ١٨/٦٨).

ونحن نرجح أن الأمويين لم يحاولو إحماء حِمَى جديد تحاشياً من أن تحدث لهم المشاكل التي حدثت لعثمان. واكتفوا بتوسيع الحمى التي كانت مقررة قبل مجيئهم.

ولا شك أن الأحماء كانت تحدث مشاكل فإن الروايات تظهر أن الغرض الرئيسي منها هو مراعي للإبل والخيل، وربما الأغنام. غير أن خصوبة أرضها كانت تودي إلى تجاوزات عليها مما كان يتطلب حراسة قوية واشتباكات غير قليلة سجلت الكتب بعضها. يضاف إلى ذلك أن تطور الحياة الاقتصادية ومحاولات إحياء الأراضي الزراعية امتد إلى هذه المناطق. وأن هذا الاحياء كان يؤدي إلى خلق الملكيات الفردية في داخل الحمى وإلى تقليص مساحة

المراعي فيه مما يتطلب إضافة أراض جديدة إليه لتعوض عما تفقده المراعي من مساحات وهكذا كانت الأحماء مناطق معرضة لكثير من المشاكل الاقتصادية والمالية فضلاً عن مشاكل الأمن الذي يحدث نظراً لموقعها النائي نسبياً في الصحراء، وبعدها عن مقرات الجيوش، وسعة مساحاتها وانكشاف حدودها وكثرة البدو القريبين منها، الأمر الذي يتطلب لها إدارة قوية وحراسة يقظة.

غير ان إدارة الحمى لم تقتصر على حمايته من التجاوزات، بل كان عليها أن تنظر أيضاً في حل كثير من المشاكل التي كانت تحدث بين الرعاة والزراع أنفسهم أو مع بعضهم، هذا فضلاً عن الإشراف على إبل الصدقة ومواشيها. وهو أم غير سهل.

يروي ابن سعد أن عمر بن عبدالعزيز «كتب فيما حمى من الأرض ألا يمنع أحد مواقع القطر فابح الأحماء ثم أباحها» (ابن سعد ٥/٢٨١).

ويروي ابن عبدالحكم أنه كتب «ونرى أن الحمى يباح للمسلمين عامة. وقد كانت تحمى فتجعل فيها نعم الصدقات فيكون في ذلك قوة ونفع لأهل فرائض الصدقات، وأدخل فيها وطعن فيها طاعن من الناس فنرى في ترك حماها والتنزه عنها خيراً إذا كان ذلك من أمر وإنما الإمام فيها كرجل من المسلمين، إنما هو الغيث ينزله الله لعباده فهم فيه سواء» (سيرة عمر بن عبدالعزيز ص ٨١).

وقد كانت بجانب الأحماء العامة، أحماء شخصية، وقد أشار جرير إلى ذلك بقوله:

ونرعى حمى الأقوام غير محرم علينا ولا يرعى حمانا الذي نحمي

وقد روى ابن عبدالبر أن عمر بلغه عن يعلى بن أمية وكان عاملاً على اليمن أنه حمى لنفسه فأمره أن يمشي على رجليه إلى المدينة فمشى أياماً إلى صعدة فبلغه موت عمر فركب» (وفاء ٢ / ٢٢٥).